كتب

تروي لنا الباحثة الإيطالية غايا سِرْفادِيّو ـ في كتابها الصادر مؤخراً ـ الحياة الخرافية والفعلية لشخَص لَا ندري، عندما ننتهي من قراءة الكتاب، في أي خانة يمكننا تصنيفه: مغامر ومخترع ودبلوماسي وجاسوس لحساب التاج البريطاني، وعالِم/لصّ آثار

النهب لا يزال مستمراً

جيوفاني باتيستا بيلزوني
لص آثار في خدمة التاج البريطاني

يوسف وقّاص

لطالما وقف الزوّار مندهشين أمام عظمة الآثار التي تغصّ بها متاحف تورينو ولندن، دون أن يدور في خلدهم أن أغلب اللقى النادرة المعروضة بين جدران قاعاتها، ليست سوى ثمرة أكبر عملية نهب للآثار الفرعونية في بدايات القرن التاسع عشر، كان بطلها مغامر إيطالي يعيش اسمه الآن بين الأسطورة والإدانة الخجولة للسرقات التي قام بها أثناء تنقيبه عن الآثار في مصر.

سرقات وعمليات احتيال قلّ مثيلها في التاريخ المعاصر، ترويها لنا غايا سِرْفادِيّو في كتابها الذي صدر مؤخراً عن دار «بومبياني» بعنوان «الإيطالي الأكثر شهرة في العالم»، بأسلوب لا يحيد قيد أنملة عن الاستشراق الأوروبي. إنها حكاية شخص لا ندري، عندما ننتهي من قراءة الكتاب، في أي خانة يمكننا تصنيفه: فهو مغامر ودبلوماسي وجاسوس لحساب مخابرات التاج البريطاني، وعالِم (لصّ) آثار و«مخترع» طرق حديثة في ري الأراضي. إنما وقبل كل شيء، هو «شخص وطنيّ» بذل كل جهد ممكن لإثراء ثقافة بلده والثقافة الأوروبية على نحو خاص.

تروي سِرْفادِيّو قصة جيوفاني باتّيستا بيلزوني، كعبقريّ في الإبداع ورائد في علم المصريات، فقد كان من بين الأوروبيين الأوائل الذين وصلوا إلى النوبة، بين عامي 1816 و1819، حيث سيكتشف عشرات المقابر في وادي الملوك، وسيزيل أكثر من 40 متراً من الرمال عن معابد أبو سمبل، وسيعثر أيضاً على مدخل هرم خفرع الذي بقي لغزاً لأكثر من 4000 عام. بيلزوني هو ابن حلاق متواضع من بادوفا، وُلد في نهاية القرن الثامن عشر، ثم أصبح في فترة قصيرة من الوقت ممثلاً مسرحياً شعبياً في لندن، فجاسوساً جريئاً في خدمة التاج، وعالم آثار هاوياً - وعبقرياً بحسب الكاتبة - في مصر المملوكية، ومدافعاً جريئاً عن جزيرة مالطا ضد جيوش نابليون بونابرت، مع رفيقة إيرلندية، أكثر «ذكورية من الرجال»، ولكنها تملك روحاً متحمّسة نقية مختلفة تماماً عن النساء الشهيرات اللواتي تزخر بهنّ صفحات التاريخ الأوروبي، الأدبي وغير الأدبي، في القرن التاسع عشر. حياة خيالية، حتى لو ذكرنا بإيجاز الفصول الأكثر إثارة للاهتمام، مع ضرورة اعتبار التغييرات.

مع أن سِرْفادِيّو مؤلفة ومؤرخة ذات باع طويل في هذا المضمار، إلا أنها لم تتمكّن من إسباغ هذه الصفة على هذا «البطل»، حتى أن المرء يتساءل: إذا كان بيلزوني يمتلك حقاً كل هذه الصفات الخارقة، لماذا يبدو منسياً تقريباً اليوم؟ التفسير الذي يقدمه الكتاب بطريقة غير مباشرة، ولكن يمكن تتبعه بسهولة في كل مقطع منه، هو أن بيلزوني بطبيعته كرجل كان لا يستقر على مقام واحد، فهو عالميّ الوجهة، ويعشق حتى النخاع، رغم كونه إيطالياً، الإمبراطورية البريطانية، حتى أنه انخرط في جهاز التجسّس ومكافحة التجسّس الذي كان قد تشكّل حديثاً، وخدم جلالة الملك دون انقطاع، على الرغم من أن هذه الخطوة كانت تناقض بشدة الميول اللاحقة لحركة النهضة الإيطالية، التي تحوّلت في ما بعد إلى القومية، أو إيطاليا الموحّدة والمستقلة في السنوات اللاحقة لموته بفضل جوزيبّي غاريبالدي.

بسردٍ واضح وأنيق، تروي لنا سِرْفادِيّو الحياة الخرافية، لكنها حقيقية تاريخياً، لهذ الرجل الغامض الذي ما زالت صفته المزدوجة، عالم آثار أم لص، تثير الجدال ولم تستقر على نهج واضح. صحيح أن بيلزوني هو ابن الثورة الفرنسية، لكنه في نفس الوقت كان عدوّها أيضاً. فقد كان طوال حياته عدواً لدوداً لفرنسا، قادراً على مواجهة أهداف نابليون المعادية للإصلاح

«مغامرات» للمراجعة

إلى جانب كتاب غايا سِرْفادِيّو «الإيطالي الأكثر شهرة» حول جيوفاني باتّيستا بيلزوني، صدر في حزيران/ يونيو الماضي كتاب عن سيرة عالم المصريات الفرنسي «شمبليون.. فكّ شيفرة عالم»، للباحث آلان فور (منشورات فايار). هنا أيضاً تجري مقاربة حياة «عالم» المصريات من زاوية المغامرات التي عاشها. ربما يحتاج هذا النوع من الكتابة إلى مراجعة ضمن المراجعة التي تعيشها قضية الآثار منذ سنوات.

في كل مكان، من بادوفا في شمال إيطاليا إلى مالطا، وانتهاء بمصر. إنها حقيقة مهمة في الواقع لفهم مركز بيلزوني وثقله المحدد بالمقارنة مع اكتشافاته في المجال الأثري، لا سيما تلك التي أنجزها في مصر. ومما لا شك فيه، تقول المؤلفة، أنه لولا تلك الاكتشافات، لما كان بوسع الملايين من السياح الذهاب اليوم لرؤية تماثيل الفراعنة والموميائات المحفوظة في متاحف لندن واللوفر والمتحف المصري في تورينو والقاهرة. بفضل هذا الإيطالي، أمكن للإمبراطورية البريطانية أن يكون لها مكانها تحت الشمس في علم الآثار المصرية.

وُلد جيوفاني باتّيستا بيلزوني عام 1778، ومنذ سن مبكرة كان يشعر بالسجن في عالم ضيق للغاية لروحه المغامرة. هكذا، ترك مدينته وعائلته واختار طريق السفر. خلال إقامته في روما، استولى عليه شغف علم الآثار، وفي باريس وهولندا أخذ يعمّق دراساته في الهندسة الهيدروليكية. في عام 1803، وصل إلى إنكلترا وانضم إلى فرقة مسرح سادلر ويلز، حيث كان يكسب رزقه مثل شمشون الجبّار. عملاق طويل القامة، كما يصفه تشارلز ديكنز، عبقري في الابتكار الذي كان يعبّر عنه في شتى الحقول، حيث قاده في ما بعد إلى لذّة اكتشاف أسرار الحضارة الفرعونية. كان عملاقاً أيضاً في ما استطاع القيام به والحصول عليه؛ الرأس الضخم لرمسيس الثاني، الموجود حالياً في المتحف البريطاني، هو من بين العديد من القطع الأثرية التي جلبها (نهبها عملياً) بيلزوني إلى لندن. كما كان من أوائل الأوربيين الذين وصلوا إلى النوبة، حيث اكتشف بين عامي 1816 و1819، اثنتي عشرة مقبرة في وادي الملوك، بما في ذلك مقبرة سيتي الأول الرائعة، التي تعرف عالمياً باسم KV17 وتشتهر بعدة أسماء أخرى منها مقبرة بيلزوني ومقبرة أبيس وتقع في الوادي الشرقي بوادي الملوك بمصر، وتمثل المثوى الأخير لفرعون مصر سيتي الأول ثاني ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وكانت واحدة من أجمل المقابر نقشاً وتزييناً للجدران. وقد دوّن بيلزوني ملاحظاته عن المقبرة مؤكداً أنه عند دخوله إياها لأول مرة، وجد النقوش بحالة ممتازة، كما أكّد عثوره على بعض الفرش والألوان المستخدمة في النقش على الجدران.

وبعد فترة وجيزة من اكتشاف المقبرة، تحديداً في عام 1824، أصدر القنصل العام البريطاني بمصر أوامره بنقل التابوت الملكي إلى إنكلترا وعرضه على المتحف البريطاني، الذي رفض الاحتفاظ به مقابل دفع ألفي دولار أميركي، ومن ثم اشتراه السير جون سوان، الذي قام بعرضه ضمن مجموعته الخاصة في نفس العام. كما تعرّضت المقبرة لدمار شديد عندما قام جان فرانسوا شامبليون (1790-1832) باقتلاع رقعة من النقوش الجدارية الموجودة بالممر الهابط خلال دراسته للمقبرة في ما بين عامي 1828 و1829، وانتزعت أيضاً متعلقات أخرى من المقبرة على يد رفيق بيلزوني، إيبوليتو روسيليني، والبعثة الألمانية التي قامت بدراسة المقبرة عام 1845، وتُعرض هذه المقتنيات المنتزعة الآن في متحف اللوفر والمتحف الأثري الوطني بفلورنسا والمتحف المصري ببرلين. في عام 1814، خلال رحلة إلى البحر الأبيض المتوسط ، علم بيلزوني أن باشا مصر، محمد علي، كان يبحث عن مخترع قادر على حل مشكلة الجفاف الذي أصاب البلاد. من خلال دراسته في علم المياه، سافر جيوفاني بيلزوني إلى مصر وقدّم مشروعه الآلي إلى الباشا، لكن الباشا لم يتحمس له ورفض الفكرة. لم يفقد بيلزوني الأمل. مفتونًا ببلد لا يزال غير معروف مثل مصر، يقرر في عام 1816 الشروع في أول رحلة اكتشاف على طول نهر النيل.

تتبع ذلك رحلتان أخريان، في عامي 1817 و1818، حيث ولدت في هذه الأثناء أسطورة المستكشف الدؤوب: أخضع بيلزوني نفسه خلالها لجهود بدنية هائلة، وتكيّف للعيش في ظروف قاسية داخل المقابر، معانياً من الحرارة والعطش والجوع. من بين مآثره المختلفة في حدود المستحيل: نقل التمثال الهائل لـ «الشاب ممنون»، الذي يزن حوالي ستة أطنان، من طيبة إلى الإسكندرية، ومن هناك إلى لندن، وهو عمل كان من المستحيل إنجازه في ذلك الوقت؛ استخراج معبد أبو سمبل الصخري من تحت الرمال، نقل مسلة الفيلة التي يبلغ ارتفاعها سبعة أمتار إلى إنكلترا؛ الحفريات في معبد الكرنك؛ اكتشاف قبر الفرعون سيتي الأول؛ العثور على مدخل هرم خفرع، وقد كان يُعتقد أنه بلا مدخل. وأيضاً كان مسؤولاً عن اكتشاف مدينة برنيس على البحر الأحمر. في عام 1819، عاد بيلزوني إلى بادوفا، حيث تم الترحيب به كبطل، ولكن توقه للاكتشاف لم يتوقف. في عام 1823 غادر مرة أخرى إلى أفريقيا، منجذباً هذه المرة إلى منابع نهر النيجر، التي لم تكن معروفة آنذاك، يقال إن جميع المستكشفين الذين دخلوا مجرى النهر، لم يعودوا أبدًا. وستكون هذه الرحلة مميتة بالنسبة له أيضًا، حيث لقي حتفه في ظروف غامضة، ربما من التسمّم أو ربما من مرض استوائي، في 3 كانون الأول/ ديسمبر في جاتو (اليوم في نيجيريا) عن عمر يناهز 45 عامًا.

(كاتب سوري مقيم في ميلانو)

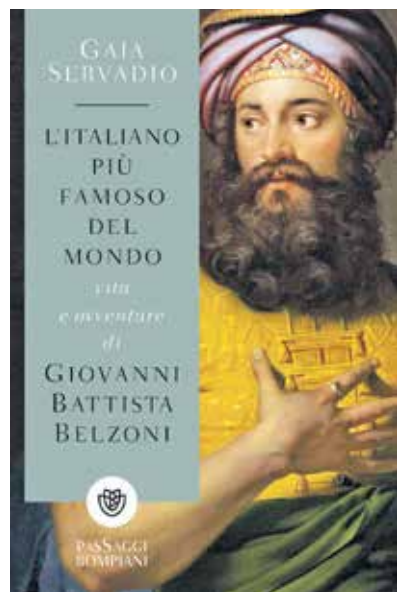

كان وراء وصول معظم الآثار المصرية المعروضة اليوم في لندن

ألحقت طرق تنقيبه البدائية الضرر بالمدافن الفرعونية

رسم لعملية نقل راس تمثال رمسيس الثاني بإشراف بيلزوني، 1816

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

نظرة أولى

صدر عن سلسلة «ترجمان» في «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» كتاب **ماكس فيبر وكارل ماركس**، وهو ترجمة عبد الله حداد لكتاب المفكر الألماني كارل لويث (1897 - 1973). الكتاب أحد الإصدارات الكلاسيكية لـ «دار راوتليدج»، ويعدّ اليوم نصاً أساسياً يتناول فلسفة الألمانيَيْن فيبر وماركس، وهو أيضاً من التفسيرات الحديثة عن الاستلاب/ الاغتراب في النظرية الماركسية والعقلنة في سوسيولوجيا فيبر، ويتناول أوجه الاختلاف والشبه بين فيبر وماركس، معتمداً في ذلك منهجاً فلسفياً هو نتاج وجودية الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر.

عن «منشورات جامعة برنستون» صدر حديثاً كتاب **العمارة الحديثة والمناخ: التصميم قبل التكييف** للباحث دانيال إي. باربر. يبيّن الكتاب كيف كان التأقلم مع المناخ ضرورة لتطوير العمارة قبل الحرب العالمية الثانية، حيث لم يكن تكييف الهواء متاحاً على نطاق واسع من خلال مناقشة التصاميم والمواد كوسيلة للتحكم في المناخ الداخلي في مشاريع معماريين مثل ريتشارد نيوترا ولو كوربوزييه ولوسيو كوستا، وكيف ساعدت الصور والمخططات التي أنتجوها في تصور المعرفة المناخية، إلى جانب عمل علماء الأرصاد الجوية والفيزيائيين وعلماء الاجتماع.

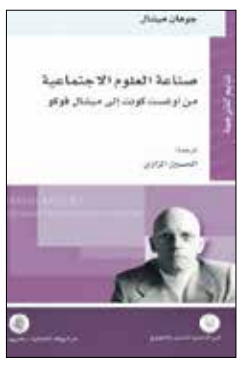

صدر حديثاً عن منشورات داري «الروافد الثقافية» و«ابن النديم» كتاب **صناعة العلوم الاجتماعية من أوغست كونت إلى ميشال فوكو** للأكاديمي والباحث جوهان ميشال بترجمة الحسين الزاوي. الكتاب يتناول صراع مجالات المعرفة الحديثة مع مكانة الفلسفة بوصفها «أم كل العلوم»، حيث سعت العلوم الاجتماعية إلى إزالة المكانة التي كانت تحتلها الفلسفة سابقاً. يلقي ميشال الضوء على طريقة استفادة العلوم الاجتماعية من التيارات التأسيسية للفلسفة (الوضعية، البراغماتية، الفينومينولوجيا إلخ)، فيما عارضت مناهج تلك التيارات وأغراضها.

عن «منتدى المعارف»، صدر كتاب **في الثقافة والسياسة وما بينهما** للباحث المغربي كمال عبد اللطيف، والذي يتناول علاقة الثقافي بالسياسي المحكومة غالباً بإرادة الهيمنة والاستقطاب، حيث يتجه السياسي إلى تصوير الثقافي بحالة طوباوية عند مقارنتها بالانخراط الفعلي والواقعي، الذي يمارسه السياسي. في حين يقوم المدافعون عن قوة وشرعية الثقافي في التاريخ، بتوضيح خفة وهشاشة التصورات والمواقف السياسية التي لا تخضع في نظرهم لمعايير ومبادئ مضبوطة، ويتطرق الكتاب إلى مسائل التحديث والدمقرطة وعلاقتها بالسياسي والثقافي.

مصر 1919: الثورة في الأدب والسينما عنوان كتاب صدر أخيراً للباحثة دينا حشمت عن «منشورات جامعة إدنبرة». يرصد العمل تجليات ثورة 1919 في الأعمال السردية، ومن أبرزها رواية «بين القصرين» للروائي المصري نجيب محفوظ التي تمثّل الثورة لحظة مركزية من خلال تحوّل وجهة أحداث العمل (حياة أسرة عبد الجواد). عبر مسح الأعمال التي تناولت الثورة، تبيّن حشمت أن كل جيل قد أعاد سرد الثورة بما يناسب عصره، وتبيّن أثر الانتماء الطبقي للكتّاب على هذا السرد، خصوصاً أثر تمثلات الطبقة الوسطى التي ينتمي لها أغلب الكتّاب والمخرجين.

بترجمة أحمد سمير سعد، صدر حديثاً كتاب **مقدمة إلى فلسفة الرياضيات** للمفكر البريطاني برتراند راسل عن «آفاق». يعدّ العمل أحد أبرز مشاريع رسل وهو الكشف عن الأصول العميقة لفكر الرياضيات، ويدرس العلاقات بين مجالات الرياضيات مثل التحليل والهندسة والجبر وعلم الاحتمالات بعلم المنطق. من أبرز المفاهيم التي يركّز عليها المفكر البريطاني مفهوم العدد ومن ورائه يدرس العلاقات التي تربط بين الكثير من الأشياء في العالم وصولاً إلى مفاهيم أكثر تعقيداً مثل اللانهائي والاتصال، والعلاقة بين التطبيقي والتنظيري في العلوم الرياضية.

عن «دراببن الكتب»، صدر حديثاً كتاب **الأسس المتشظية: من دولة المنظمة السرية إلى دولة العصابات** للباحث العراقي سليم جوهر. ينطلق العمل من سؤال: لماذا تفشل الجماعات العراقية في التحرّك من أجل البناء الوطني؟ يطرح الباحث فرضية البحث عن المصالح الضيقة لتفسير الوضع العراقي، حيث إن هذه الظاهرة لا يمكن أن تنتج دولة ترعى الإنتاج أو تحفظ الأمن. يرى جوهر أنه حينما تفتتت السلطة الشمولية مع الغزو الأميركي (2003)، تفاقم منطق المصالح الضيقة وتكوّنت تنظيمات خاصة داخل الدولة تتحوّل في أية لحظة إلى تنظيمات خارجة عليها.

بإشراف الباحث في العلوم السياسية حمادي الرديسي، صدر حديثاً كتاب **تونس وتحدّي الكوفيد** - 19 في طبعة مشتركة بين «المرصد التونسي للانتقال الديمقراطي» و«مؤسسة فريديرش إيبرت» الألمانية. يتضمّن العمل قراءة في تاريخ الأوبئة في تونس قدّمها الباحث عبد الكريم علاقي، ودرس كلّ من أيمن ماكني وسيرين بن سعيد صفار واقع الصحة العمومية من زاوية علم الاقتصاد السياسي، فيما حلّل باقي الباحثين الجائحة من منظور سياسي، مثل دراسة هادي بن مراد عن مفهوم السلطة زمن الأزمة الصحية، وتناولت فاطمة الأزمة من منظور حقوق الإنسان.